

ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس

نجح دى لسبس في التأثير على محمد سعيد والى مصر فاستصدر منه عقد امتياز نص فيه على الترخيص لدى لسبس في إنشاء شركة تقوم بحفر قناة السويس واستغلالها لمدة ٩٩ عاماً تبدأ من تاريخ فتحها للملاحة البحرية للكبرى . وقد دلت الملاحظات التي تمت فيها الموافقة على المشروع على أن سعيداً لم يكن يقدّر مصالح مصر تمام التقدير وأنه كانت تعوزه حصافة الرجل السياسى وبعد نظره .

كان العقل والمنطق يقضيان بأن يدرس المشروع أولاً من نواحيه الهندسية والمالية والسياسية ثم يصدر عقد الامتياز ولكن الذي حدث هو العكس تماماً فصدر العقد أولاً ، ثم بدأت بعد ذلك الدراسات الفنية ومعرفة تكاليفه ، وسرعان ماتوات المشكلات السياسية التي تمثلت أول ما تمثلت في معارضة إنجلترا لمشروع القناة .

والملاحظة الثانية التي نسجلها هنا وكان لها أثرها في ما تكلفته مصر في إنشاء القناة . هذه الملاحظة هي الصداقة الوثيقة التي كانت تربط بين الرجلين . وقد برزت هذه الصداقة شكلاً وموضوعاً في العقد . إذ تكرر لفظ الصداقة في العقد أكثر من مرة :

« لما كان صديقنا المسيو فردينان دى لسبس قد وجه نظرنا إلى الفائدة التي سوف تعود على مصر من إيصال البحر المتوسط بالبحر الأحمر.... »

« إلى صديقي المخلص الكريم المحتد الرفيع المقام المسيو فردينان دى لسبس » فالعنصر الشخصي كان مسيطراً على الموقف تمام السيطرة وكانت هذه السيطرة هي مكن الخطورة ، فظهر عقد الامتياز حافلاً بامتيازات خطيرة مجحفة بحقوق مصر . نذكر منها على سبيل المثال منح الشركة أراض شاسعة في منطقة القناة وعلى ضفتي ترعة الماء العذب التي تحفرها الشركة من القاهرة

إلى بور سعيد والسويس ، أى أن الشركة تصبح مالكة لأراض مترامية الأطراف في مديرتي القليوبية والشرقية ومنطقة القناة من شمالها إلى جنوبها . وما هي العلاقة بين إنشاء قناة السويس وبين تملك أراض شاسعة في منطقة لها أهميتها العسكرية في إقليم مصر وتسيطر على الطريق بين الشرق والغرب لتقوم الشركة باستغلالها واستعمارها ، إذ تستطيع أن تستقدم جاليات فرنسية وتمتع الشركة ، بفضل نظام الامتيازات الأجنبية الذي كان قائماً في مصر في ذلك الوقت ، باستقلال في التشريع والقضاء والإدارة وغير ذلك مما يتيح لها بسهولة وسرعة وبتأييد من باريس أن تبسط سلطانها على هذه المساحات الشاسعة وهو أمر يؤدي في النهاية إلى قيام حكومة داخل الحكومة المصرية . ولا يعزب عن البال أن الإمبراطورية البريطانية في الهند قد قامت على أكتاف التجار ولم تقم على أكتاف العسكريين . فقد نزل الإنجليز في الهند أول الأمر تجاراً ثم اكتسبوا امتيازات تجارية وتطور موقفهم فامتلكوا الأراضي وأشرفوا على الإيرادات وانتهى بهم الأمر إلى أن غدوا سادة حكاماً . وهذا الدور حاولت شركة القناة القيام به فعلاً إذ استقدمت أميراً عربياً موالياً لفرنسا وحاولت تنصيبه أميراً على الأراضي التي تمتلكها . ولولا المعارضة العنيفة التي قامت في ذلك الوقت لوقع الخطب ولكانت الحكومة المصرية أمام الأمر الواقع .

ومن الامتيازات العجيبة التي وردت في العقد أن منحها سعيد باشا حق بيع ماء النيل للفلاحين الذين يملكون أراض زراعية ويرغبون في ربحها مستقبلاً من ترعة الماء العذب التي تعزم الشركة بحفرها . كما تتمتع الشركة بحق الإعفاء الجمركي على جميع الأدوات والمهمات التي تستوردها من الخارج بقصد استغلال الامتياز الممنوح لها ، وللشركة أيضاً أن تستخرج بدون مقابل جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمباني التي ستكون تابعة لها من المحاجر والمناجم الأميرية .

وقد علق روسى Rossetti قنصل توسكانا في مصر على الامتيازات التي وردت في هذا العقد فقال في تقرير أرسله إلى وزير خارجية فلورنسا بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٨٥٤ « ولم يحدث مطلقاً يا صاحب المعالي أن ظفرت شركة بمثل هذه الامتيازات العظيمة وبمثل هذا السخاء من أية حكومة كانت ». أما كرابيتس Crabites فقال في شيء من التهمك المرير : « من الغريب أن سعيداً لم يطالب صديقه بأى ثمن مقابل الامتيازات التي منحها إياه بل باع إرث الفراعنة لرجل فرنسى وقبض الثمن ابتسامة زائلة » .

ولم تكد تمر ثلاثة أسابيع على صدور عقد الامتياز حتى كانت الأموال المصرية تنساب في يسر وسرعة وسخاء لخدمة المشروع ورجال المشروع ومن لاذ بالمشروع . فقد طلب دى لسبس إلى سعيد ، بعد أن ظفر بالعقد ، أن تنظم له الحكومة رحلة يرتاد فيها منطقة البرزخ لدراسة مشروع القناة على الطبيعة ، واستجاب سعيد ، وشاء الكرم الشرقى أن تتكفل الحكومة المصرية بجميع نفقات الرحلة . وقد رافق دى لسبس في هذه الرحلة لينان بك وموجل بك كبيراً مهندسى الحكومة المصرية وعدد من المهندسين والرسامين والكتابة والأدلاء ومن إليهم . وكان عدد الجمال التي خصصت لنقل ماء الشرب فقط خمسين جملاً . واستغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع . وكانت هذه الرحلة أول إسهام فعلى من الحكومة المصرية على عهد محمد سعيد في سبيل إنشاء القناة . هذا إذا تجاوزنا عن نفقات استضافة دى لسبس في الإسكندرية عند وصوله إليها من فرنسا بحجة تهنته سعيد على توليه الحكم ، وقد خصص لإقامته قصر المحمودية .

ولما انتهت الرحلة في ١٥ يناير ١٨٥٥ ترك دى لسبس كبرى المهندسين بعدان تقريرهما وأبحر من الإسكندرية في ٢٧ يناير ١٨٥٥ إلى القسطنطينية يلتمس تصديق السلطان عبد المجيد على عقد الامتياز . ولكنه لم ينجح بسبب المعارضة الإنجليزية لمشروع القناة ، وقد حمل لواءها في القسطنطينية السير

سترادفورد دى ردكليف Sir Stradford de Redcliffe سفير إنجلترا
هناك فعاد إلى مصر .

واتفق دى لسبس مع سعيد على تكوين لجنة علمية دولية تتكون من
أساطين الهندسة في دول أوروبا للدراسة تقرير لينان بك وموجل بك . وأقنع
إلى فرنسا يلتمس تأييد الإمبراطور وحكومته ثم ذهب إلى إنجلترا محاولاً
التغلب على معارضة الحكومة الإنجليزية لمشروع القناة . وانهز فرصة وجوده
في أوروبا فكون اللجنة العلمية الدولية من أعضاء يمثلون سبع دول .
وجاء خمسة من أعضاء اللجنة إلى مصر بحجة دراسة المشروع على الطبيعة
ومن الغريب أن دى لسبس دعا كثيراً من أصدقائه ومعارفه في فرنسا إلى
السفر إلى مصر مع أعضاء اللجنة حتى ضاقت بهم السفينة أزوريس Osiris
التي أقلتهم إلى مصر . ويقول لينان بك إنه لو استجاب جميع الذين وجهت
إليهم الدعوة لتطلب الأمر استئجار عدة سفن يبحرون عليها إلى مصر
ولازدحت بهم جميع فنادق مصر ! ولا بد أن نشر إلى هذه الحقيقة : وهي
أن دى لسبس لم يكن من رجال الأعمال حتى يستطيع استضافة العدد الضخم
من المدعوين من ناحية وحتى يستطيع هو شخصياً التنقل بكثرة بين مصر
وتركيا وفرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا وغيرها من ناحية ثانية . لقد كان
موظفاً في وزارة الخارجية الفرنسية ثم أحيل إلى الاستيداع لأمر نسبت إليه ،
ولم يكن معاشه أو راتبه ليكفيه مؤنة العيش ، فلجأ إلى حماه مدام دى لامال
Mme de la Malle يعيش معها في الريف الفرنسي حيث كانت تمتلك
قطعة أرض أشرف على استغلالها . ولكن دى لسبس كان يعلم أن مدعويه
سينزلون في رحاب الوالى ، وأن مصر هي التي تتحمل نفقات هذه النزهة ،
فخزانة الوالى هي خزانة الحكومة المصرية . وفعلاً فتح لهم سعيد اعتماداً قدره
١٢ ألف جنيه للإنفاق عليهم ، وأضفى عليهم الكثير من مظاهر التكريم
ودعاهم إلى النزهة التقليدية لزيارة آثار مصر في الوجه القبلي ولقضاء شطر

من الشتاء في صعيد مصر . وانتقد لينان بك هذا التصرف وتساءل عن الفائدة التي عادت على مصر من هذه الزهرة وقد رافقهم فيها وقال عنها « إن الموائد التي قدمت للضيوف طوال الرحلة قد حوت أطيب أنواع الخنزور وأشهى المأكولات بكميات وفيرة » .

وبعد مضي أكثر من شهر على قدومهم بدأوا في المهمة التي من أجلها قدموا ، فزاروا منطقة القنطرة زيارة عابرة من السويس واتجهوا شمالاً إلى البحر المتوسط ثم استقلوا الباخرة المصرية « النيل » إلى الاسكندرية فبلغوها في أول يناير ١٨٥٦ وفي اليوم التالي قدموا إلى سعيد تقريراً موجزاً قرروا فيه أن حفر القناة سهل ونجاحها مؤكد وأن تكاليف المشروع من كافة نواحيه لا تتجاوز ٢٠٠ مليون فرنك على ما ذهب إليه كبيراً مهندسي الحكومة المصرية في تقريرهما .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى أصدر سعيد باشا في ٥ يناير ١٨٥٦ وثيقتين هامتين هما عقد الامتياز الثاني وقانون الشركة الأساسي مما يدل دلالة قاطعة على أن هاتين الوثيقتين كانتا معدتين لتوقيع سعيد باشا عليهما قبل أن تقدم اللجنة تقريرها الموجز إليه . إذ لا يعقل أن يوضع عقد الامتياز الثاني متضمناً ٢٣ مادة وقانون الشركة الأساسي حاوياً ٧٨ مادة في خلال يومين . فالأمر لم يكن سوى تمثيلية أعدها دي لسبس مع أعضاء اللجنة للتمويه على سعيد ، وأن النية كانت مبيتة على اغتيال حقوق مصر وأموالها وجهود شبابها والاستيلاء على مساحات شاسعة من أراضيها الزراعية والصحراوية لأغراض استعمارية .

جاء عقد الامتياز الثاني على غرار العقد الأول حافلاً بالامتيازات التي أغدقت على الشركة إغداقاً ، بل إن الامتيازات التي وردت في العقد الثاني فاقت ما جاء في العقد الأول كما وكيفاً .

وتوالى المساعدات المصرية للمشروع فاتفق دي لسبس مع سعيد على

أن تنفق الحكومة المصرية على جريدة يصلها باسم *L'Isthme de Suez* يرزخ السويس للدعاية للمشروع في أوربا . وكانت تصدر نصف شهرية ، وظهر العدد الأول منها في ٢٥ يونيو ١٨٥٦ ثم اتفق معه على إصدار طبعة منها باللغة الإيطالية .

وما لبث أن استصدر دى لسبس من سعيد في ٢٠ يوليو ١٨٥٦ لائحة عرفت باسم (لائحة استخدام العمال الوطنيين في حفر قناة السويس) وتطبيقاً لهذه اللائحة سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق القناة وفق نظام السخرة . وكان تدخل الحكومة لجمع العمال أمراً مألوفاً في ذلك الوقت وكثيراً ما جرى عليه العمل في مصر مع فارق واحد هو أن الحكومة كانت تجمع العمال لتنفيذ مشروعات تقوم هي بها من أجل المصلحة العامة كحفر الترع أو مد الخطوط الحديدية أو إصلاح جسور النيل درءاً لأخطار فيضان عال . فالسخرة يمكن اعتبارها من هذه الناحية نوعاً من الضرائب ، لأن الضرائب قد تؤدي نقداً أو عيناً أو عملاً . والحالة الاقتصادية السائدة في أي بلد هي التي تحدد الأسلوب الذي تؤدي به الضرائب .

وقد أراد دى لسبس أن تتدخل الحكومة لجمع مئات الألوف من العمال المصريين وإكراههم على العمل في حفر القناة . وهذا هو وجه الخطأ . لأن مشروع القناة يخضع للقانون العام ، ويترتب على ذلك أن تكون الشركة هي المكلفة بالقيام بنفسها بتدبير وسائل تنفيذ المشروع ، فتحصل على جميع العمال الذين تتطلبهم عمليات الحفر وفق الطريقة الحرة التي تقوم على عرض من مندوب الشركة وقبول من ناحية العامل بعد الاتفاق على الأجر وساعات العمل وما إلى ذلك . وأراد دى لسبس أن يسجل تدخل الحكومة لجمع العمال من أجل حفر القناة في وثيقة رسمية تأميناً لمصالح الشركة فاستصدر من سعيد لائحة العمال . وهكذا غدا سعيد باشا أداة طيعة لينة في يد صديقه دى لسبس الذي ظفر بالوثيقة الرسمية الرابعة في أقل من عامين بعد صدور عقد الامتياز الأول ثم الثاني ثم قانون الشركة الأساسي .

وأظهر دى لسبس براءة في صياغة مواد هذه اللائحة إذ تجنب أن يضمها لفظ السخرة إطلاقاً وإن كانت بعض موادها تفيض بها معنى وروحاً. وهكذا كانت براءة دى لسبس لا تبرز إلا في مجال الخداع والتدليس والتلاعب بالألفاظ ليخفي وراءها ما يبته من تسخير الشعب المصري في حفر القناة. وقد قرر ثلاثة من أقطاب القانون في فرنسا^(١) في نوفمبر ١٨٦٣ أن الإبقاء على هذه اللائحة إنما هو إبقاء للسخرة لأن اللائحة والسخرة مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها.

ويكفي أن نذكر هنا - نظراً لضيق المقام - المادة الأولى من هذه اللائحة، فقد نصت على أن «تقدم الحكومة المصرية العمال الذين سيعملون في أعمال الشركة تبعاً للطلبات التي يتقدم بها كبير مهندسي الشركة وطبقاً لاحتياجات العمل». كانت هذه أخطر مادة على الإطلاق في اللائحة. وظهر فيها الغبن الذي وقع على الشعب المصري: إذ كانت مادة مرنة ناقصة. لم تحدد عدد العمال، ولم تعين حداً أقصى لعددهم لا يجوز تجاوزه بأية حال من الأحوال، ولم توزع حشد العمال على مواسم الزراعة بنسبة معينة، بل جعلت تقديم العمال المصريين إلى الشركة منوطاً برغبة كبير مهندسها وهو مستخدم فرنسي كان يؤثر مصلحة الشركة على مصالح الشعب. وقد قرر أنه كان يحصل على العمال بمجرد طلب بسيط يقدمه إلى مديري الأقاليم. وهكذا أخضع سعيد مديري المديرية ووزارة الداخلية لسلطة مستخدم فرنسي في شركة القناة. ولم يكن دى لسبس ليقتنع بعشرين ألف عامل بل كان يسأل الحكومة إلخافاً أن ترسل إلى ساحات الحفر أربعين ألفاً. ويقول كلفن Colvin إن سعيد باشا قد جلب الشقاء على الفلاحين بل كان من أكبر العاملين على إتعابهم بسبب امتياز قناة السويس الذي فرض عليهم للسخرة في أشد حالاتها وأبعدها عن المكافأة.

(1) Note consultative pour Son Altesse Ismaïl Pacha. Vice Roi d'Égypte, délibéré par Mtes. Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre, en date du 30 novembre 1863.

وضع سعيد في خدمة الشركة وسائل النقل الحكومية من سكك حديدية ومنفقات نفقات . فعلى الرغم من أن لائحة العمال قد نصت على أن تتكفل الشركة بنفقات سفر العمال إلى ساحات الحفر إلا أن سعيد باشا رضى أن تتحمل الحكومة عن الشركة هذه النفقات . وكانت هذه حلقة جديدة في سلسلة الخدمات التي أسدتها مصر إلى الشركة .

ووضع ضباط البوليس أيضاً في خدمة الشركة فكانوا يرافقون أفواج العمال في سفرهم من بلادهم إلى الزقازيق - نهاية الخط الحديدى في ذلك الوقت . وقد اتخذت الزقازيق مركزاً لتجمع العمال . وهناك يتسلمهم مندوب الشركة من ضابط البوليس بعد أن يوقع إقراراً بعدد أفراد النروج . وفي الزقازيق يربط المصريون بالحبال في أيديهم ، بعضهم إلى بعض ليستأنفوا السفر سيراً على الأقدام إلى منطقة القناة تحت الحاسة الشديدة من بوليس الهجانة . وكانوا يقطعون المسافة الأخيرة في أربعة أيام . ويقول سائح فرنسى إنه شاهد صباح أحد الأيام في شهر ديسمبر ١٨٦٢ جموعاً كثيفة من العمال يجتازون الصحراء ولاحظ أن طلائعهم الأولى قد اختفت عن الأنظار بينما كانت صفوف متراصة منهم لا تزال في صف طويل متجهة شطر منطقة القناة .

وسخرت الحكومة جنود الجيش في حفر القناة ونار الحند وأعلنوا العصيان ووقعت حوادث دموية بينهم وبين الفرنسيين من رؤساء ساحات الحفر . وخفض سعيد عدد القوات المسلحة المصرية بحجة التخفيف عن كاهل الميزانية ، وأرسل الجنود المسرحين والشبان المقترعين إلى صحراء البرزخ لحفر القناة وهكذا كانت القناة سبباً في اضمحلال الجيش المصرى في ذلك الوقت .

ولم تقف عمليات الحفر خلال أشهر رمضان ، فكان العمال ينامون نهاراً ويحفرون القناة ليلاً على أضواء المشاعل .

ومات الآلاف من المصريين عطشاً في ساحات الحفر إذ فشلت الشركة

في توفير ماء الشرب خلال السنوات الأربع الأولى ، لأنها بدأت في حفر قناة السويس قبل أن تشرع في حفر ترعة الماء العذب كما كان مقرراً . واعتمدت على وسيلة بدائية هي ماء الآبار تنقلها الجمال إلى العمال ، ويقول أحد الفرنسيين المعاصرين : « كانت قوافل الجمال التي تحمل الماء تصل متأخرة نتيجة أوامر أسىء إعطاؤها أو أسىء فهمها أو أسىء تنفيذها » وهكذا شهد شاهد من أهلها . كان الموت يدرك العمال قبل أن يلزمهم ماء الآبار . مما جعل هذه السنوات الأربع من أحلك الفصول سواداً في تاريخ الشركة .

وانتشرت الأوبئة بين العمال المصريين وفتكت بهم فتكاً ذريعاً . وكان في مقدمتها التيفود والتيفوس والكوليرا والحمى الراجعة والجلدى . ونستقى هذه المعلومات من مصادر الشركة نفسها إذ كان كبير أطباء الشركة يضع تقريراً في نهاية كل عام يستعرض فيه الحالة الصحية بين العمال . وقد قرر في أحد تقاريره أن زمام الموقف كاد يفلت من الشركة وأنه مرت بها فترة عصيبة إذ عجزت عن أن تجد رجالاً يحملون جثث الموتى فأمرت عدداً من مستخدميها في قسم الحسابات برفع جثثهم :

تسربت أنباء تلك المآسى إلى الخارج حتى أصبح تسخير المصريين في حفر القناة فضيحة عامة *a public scandal* كما قال بحق مؤرخ مصر الخديوية إدوارد ديسى *Edward Dicey* وقد ذكر أيضاً أنه كثيراً ما أسىء استخدام السخرة في مصر حتى غدا سوء استخدامها أمراً عادياً في هذه البلاد ولكن لم يحدث مطلقاً أن أسىء تطبيقها كما حدث في حفر قناة السويس . وأكد أنه لو استمر حفر القناة يسيراً سنوات أخرى على هذا الأسلوب لنقص عدد سكان مصر نقصاناً خطيراً . إنها جزية فرضتها شركة القناة على البلاد ، وكانت استغلالاً لشعب بأسره من أجل خدمة مصالحها . ويقول جول فافر *Jules Favre* أحد وزراء فرنسا السابقين تعليقاً على هذا التجنيد : إن الولاة من أسرة محمد على يحكمون مصر طبقاً لفرمان سنة ١٨٤١ ولكنهم

لا يمتلكون المصريين كما يمتلك الإنسان قطعاً من الغنم أو عقاراً تنتقل ملكيته من شخص إلى آخر .

حدثت هذه التعبئة المدنية التي فرضت على الشعب المصري من أجل إنشاء القناة في وقت لاحق فيه للاقتصاد المصري فرصة ذهبية نادرة . فقد قامت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وتعذر تصدير القطن الأمريكي إلى إنجلترا وأوقف العمل في عدد من مصانع الغزل والنسيج في إنجلترا ، ووقعت فيها أزمة اقتصادية خانقة أطلق عليها « المجاعة القطنية » وبلغ عدد العمال الإنجليز المتعطلين في مصانع الغزل والنسيج ٦٦٤,٣٣٠ عاملاً . وطالب الرأي العام الإنجليزي حكومته باستيراد القطن من جهات أخرى . فأوفدت الحكومة الإنجليزية ، بالاشتراك مع جمعية استيراد القطن في مانشستر بعثة اقتصادية إلى مصر . وقدّمت البعثة عروضاً مغرية للتوسع في زراعة القطن وأبدت استعدادها لشراء جميع الأقطان التي تزرعها مصر بأسعار مجزية للغاية . ولكن سعيد باشا عالج الموقف على وجه معكوس . كان المفروض أن يمسك يده ولو قليلاً عن الشركة ويستبقى جانباً من عمال السخرة في الحقول يزرعون القطن الذي ارتفعت أسعاره ارتفاعاً جنونياً . ولكن زاد التدفق الآدمي على ساحات الحفر بعد وصول البعثة حتى وصل إلى ذروته في السنوات التالية وارتفع عدد العمال إلى ٢٢ ألفاً كل شهر . وقد جاء في تقرير رئيس البعثة الاقتصادية الإنجليزية أنه لاحظ في كل جهة من الجهات التي زارها في مصر وجود مساحات كبيرة من الأرض دون استغلال .

وفي الواقع كانت في مصر في ذلك الوقت أراضٍ غير ذات زرع بسبب نقص الأيدي العاملة الزراعية ، واعترف سعيد بهذه الحقيقة في مذكرة أرسلها إلى الحكومة التركية . وحاول إسماعيل في مستهل حكمه معالجة مشكلة نقص الأيدي العاملة الزراعية باستقدام عمال من الصين والهند يقيمون في الأراضى الزراعية ويتولون استغلالها . وهكذا أعاق أعباء السخرة في حفر القناة

إلى حد كبير إنتاج القطن كما أنها حجبت عن البلاد نعمة الانتفاع بارتفاع أسعار القطن . وقد تعرض لايارد Layard وكيل وزارة الخارجية البريطانية لهذا الموضوع في جلسة أول أغسطس ١٨٦٢ بمجلس العموم البريطاني فقال : « إن عدداً من الرجال يراوح عددهم بين سبعين ألفاً وثمانين ألفاً قد انتزعوا من أعمالهم التي يؤدونها في قراهم ليساعدوا في إنشاء قناة السويس . إن هذه الخطة لا بد أن تؤدي إلى بوؤس عظيم . وتتعارض بشكل جدي وخطير مع الأعمال الأخرى التي تدر أرباحاً كثيرة مثل إنتاج القطن ... وقد قلدر نوبار ما خسرت مصر كل سنة بسبب ذلك بأربعين مليون فرنك أي ما يقرب من مليون وستمائة ألف جنيه . وقالت بحق جريدة التيمس Times في هذا الصدد « إن رخاء مصر قد أفسده نزع الفلاحين قهراً من حقولهم ونقلهم إلى البرزخ بطريقة ظالمة غير قانونية »

* * *

وإذا انتقلنا من هذه المعاونة الأدمية الهائلة التي كلفت مصر عدة ملايين من الجنيهات خسرها الاقتصاد المصري في تلك السنوات ، نجد الأموال المصرية قد أنفقت في سخاء وسذاجة على تنفيذ المشروع وتدعيم مركز الشركة المالي المتداعى في ذلك الوقت . فقد عجز دي لسبس عن أن يبيع جميع أسهم الشركة حين طرحها للاكتتاب العام وبقى لديه أكثر من ربع مجموع عدد الأسهم على الرغم من أنه خصص لمصر باديء ذي بدء ٦٤ ألف سهم ثمنها ٣٢ مليون فرنك . ولكنه عول على إخفاء الفشل الذي منى به وأعلن كذباً وزوراً وبهتاناً أن رأس مال الشركة قد غطى بأكمله وأن الشركة تبعاً لذلك قد استكملت عناصر وجودها وألفت الشركة نهائياً في ١٥ ديسمبر ١٨٥٨ . وانتك في هذه الخطوة قانون الشركة الأساسي انتهاكاً صارخاً إذ نصت المادة الرابعة على أن تأليف الشركة لا يتم إلا بعد تغطية رأس المال بأكمله . وما لبثت أن استفاضت البشائعات في أوروبا بهذه الحقيقة وهي أنه قد

بقى في حوزة الشركة عدد كبير من الأسهم دون بيع بسبب امتناع انجلترا والنمسا بوجه خاص عن الاكتتاب في أسهم الشركة . وقد أشاعت هذه الأنباء الاضطراب في نفوس مسهمي الشركة فاضطر دي لسبس إلى أن يكشف عن حقيقة الموقف محاولاً أن يرجعه إلى أسباب عسكرية حربية وهو تبرير واه ضعيف . فقد أعلن في الاجتماع الأول للجمعية العامة لمسهمي الشركة والذي عقد في ١٥ مايو ١٨٦٠ أنه بسبب اندلاع الحرب في أوروبا في مستهل عام ١٨٥٩ أن نشأت حالة قهرية اضطرت فيها العلاقات المالية مع كثير من أصحاب المصارف الذين توقفوا عن الدفع ، ثم قال : « ولهذا اتفقنا مع الوالي كي يأخذ لحسابه نهائياً الأسهم المخصصة لأصحاب المصارف الأجنبية والذين حالت الظروف القهرية عن الوفاء بالتزاماتهم » . وكان هدف دي لسبس من هذا التصريح غير الصحيح هو بث الظمأنينة في نفوس المسهمين من ناحية ووضع سعيد باشا أمام الأمر الواقع من ناحية ثانية . ولذلك ما كاد ينتهي اجتماع المسهمين حتى حضر إلى مصر وعرض على سعيد ابيع الأسهم المتبقية لدى الشركة فرفض سعيد أول الأمر ولكنه عاد بعد ذلك بيومين فاستجاب إلى ملتمس صديقه وقبل الأسهم المعروضة وأصبح مجموع الأسهم التي فرضت على مصر ١٧٧٦٤٢ سهماً قيمتها الإسمية وقت الاكتتاب ٨٨,٨٢١,٠٠٠ فرنك أي مايقرب من ٣,٥٥٢,٨٤٠ جنياً وكان عدد الأسهم يوازي ٤٤ ٪ من قيمة رأس مال الشركة وأصبحت مصر ثاني بلد في العالم بعد فرنسا من حيث ملكيتها لعدد الأسهم . واستمر ضغط دي لسبس على سعيد حتى استطاع أن يستصدر منه اتفاقاً رسمياً بهذه الصفقة بتاريخ ٦ أغسطس ١٨٦٠ وكان هذا الاتفاق هو بدء التزامات مصر المالية نحو شركة القناة . ويقول مؤرخ قصة الخديوية في مصر إنه لولا المساعدات المالية التي ظفرت بها شركة القناة على حساب مصر لاستحال على الشركة أن تستكمل مقوماتها ودعاماتها وقرر أن الدعاء الفرنسيين لم يقبلوا الاعتراف

بهذه الحقيقة . ولكن شارل روفرنسوا أحد مؤرخى القناة المناصرين لدى لسبس اعترف بجانب من هذه الحقيقة فى سنة ١٩٣٦ إذ قال : « إلى سعيد باشا والى مصر يعود فضل أكبر خلعمة أسداها لشركة القناة حين سد الثغرات التى حدثت فى عملية الاكتاب » .

ومع ذلك فإن مصر لم تنعم بهذه الأسهم : فقد تفاقمت الأزمات المالية بالحكومة المصرية على عهد اسماعيل تفاقما أدى به إلى التذكير فى بيعها . وقام تسابق بين إنجلترا وفرنسا على الفوز بهذه الأسهم واستطاع ذرائيلى رئيس الوزارة البريطانية أن يكسب الجولة فاشتراها فى سرعة خاطفة من اسماعيل فى نوفمبر ١٨٧٥ بمبلغ إجمالى قدره أربعة ملايين من الجنيهات .

ووضع مجلس العموم البريطانى أمام الأمر الواقع . وكان هذه الصفقة طابعها السياسى بجانب طابعها المالى . واتضح بعد إبرام الصفقة أن مصر لم تكن تمتلك كل الأسهم التى اكتب بها أول الأمر وأنها تصرفت فى ١٠٤٠ سهماً فخصم ثمنها من الصفقة وهبط المبلغ إلى ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيهاً . ومع ذلك فإن الحكومة الإنجليزية قد استردت من الحكومة المصرية الجزء الأكبر من هذا المبلغ بطريقة ماكرة خادعة ، إذ كان اسماعيل قد تنازل لشركة القناة طبقاً لاتفاقية ٢٣ أبريل ١٨٦٩ عن فوائده أسهم مصر لمدة خمسة وعشرين عاماً تنتهى فى ١٨٩٤ . فلما باعت مصر أسهمها لإنجلترا طلبت الأخيرة أن تدفع لها مصر فوائده بنسبة ٥ ٪ من قيمة الثمن مقابل حرمان الحكومة الإنجليزية من أرباح الأسهم طوال هذه المدة .

وأذعنت الحكومة المصرية لهذا الطلب وأخذت تدفع لإنجلترا الفوائد المطلوبة سنوياً . وقدر البعض أن مجموع الفوائد التى تسلمتها إنجلترا من مصر منذ أن تم عقد الصفقة حتى ١٨٩٤ . قد بلغ ٣,٨٣٣,٤٨٤ جنيهاً فكأن مصر قد باعت أسهمها لإنجلترا بمبلغ ١٤٣,٠٩٨ جنيهاً !! ومنذ ذلك التاريخ إلى أن

أتمت شركة القناة في ٢٦ يونيو ١٩٥٦ انساب أكثر من مائة مليون جنيه في خزانة الحكومة الانجليزية قيمة أرباح أسهم مصر .

• • •

وقد سبقت مأساة بيع الأسهم لانجلترا عدة مآسى مالية جسيمة أخرى تحملتها مصر . وكان من بينها التعويض المالى الضخم الذى حكم به نابليون الثالث إمبراطور فرنسا بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ على أثر النزاع الذى قام بين الحكومة المصرية على عهد اسماعيل وبين الشركة . فقد تطور هذا النزاع تطوراً أدى إلى أن طلب اسماعيل تحكيم الإمبراطور . وقد جانب إسماعيل التوفيق في هذه الخطوة لأن نابليون الثالث كان قد احتضن مشروع القناة منذ أن ظفر دى لسبس بعقد الامتياز الأول إذ لم تكد تمر ثلاثة أسابيع على صدور هذا العقد حتى منح سعيداً وسام الشرف تقديراً منه لسعيد . ورأى الإمبراطور أن قناة السويس مشروع قومى فرنسى يعلى من شأن فرنسا في ربوع الشرق وإنما فكرة نابليونية انحدرت إليه من عمه الإمبراطور نابليون بونابرت . وكان عدد من الصحف الفرنسية يطالب السلطات العليا في فرنسا في ذلك الوقت بوجوب رعاية مصالح الفرنسيين الذين اكتبوا بنصيب موفور في أسهم الشركة . يضاف إلى ذلك أن دى لسبس كان يفرع إلى الإمبراطور كلما تعرضت الشركة لأزمة سياسية مستحكمة يلتمس تدخله لنصرة أصحاب رءوس الأموال الفرنسية التى أسهمت في المشروع .

وانتهز دى لسبس فرصة تحكيم الإمبراطور وطالب بتعويضات خيالية بلغت ١٠٧ مليون فرنك أى أكثر من نصف رأس مال الشركة وأن تتنازل الحكومة المصرية لها عن نصيبها المقرر في الأرباح وقلده ١٥ من صافي أرباح الشركة . ولذلك لم يكن عجباً أن يصدر الإمبراطور حكماً جائراً بأن تدفع مصر للشركة تعويضاً قلده أربعة وثمانون مليون فرنك أى ما يساوى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألف جنيه في مقابل إلغاء السخرة في حفر

القناة واسترداد جزء من الأراضي وترعة الماء العذب التي حفرتها الشركة من القصاصين إلى مدينة السويس في حين أن المصريين هم الذين سخروا في حفرها وقد بلغ عددهم طبقاً لإحصاءات الشركة ١٥٥,٨٩٣ مصرياً . وقد ذكر روشتين Rochstein أن هذا الحكم لم يكن غير سرقة من سرقات عدة أذعن فيها مصر لأوروبا المستنيرة الفاضلة . وقد علق رئيس لجنة التحكيم على ضخامة هذا التعويض الذي اقترحه وأخذ به الإمبراطور - علق تعليقاً غريباً إذ قال إن باشوات مصر وسراتها ينتفرون كل عام على مسراتهم وعلى أمور غير مجدية مبالغ أكثر من هذا التعويض .

ويجدر بنا أن نصحح هنا خطأ شائعاً وقع فيه المؤرخون والكتاب فقد قرروا أن التعويض الذي تقرر على مصر في مقابل إلغاء السخرة هو ٣٨ مليون فرنك . والواقع أن لجنة التحكيم قررت هذا التعويض بمبلغ ٤٢,٥ مليون فرنك وأقر الإمبراطور هذا التقدير . وقد وجدت اللجنة أن على الشركة أجوراً متأخرة للعمال المصريين بلغت في تقدير اللجنة أربعة ملايين ونصف مليون فرنك ورأت أن تخصم هذه الأجور المتأخرة من مبلغ التعويض الذي تقرر عن إلغاء السخرة فأصبح صافي المبلغ المتعين دفعه هو ٣٨ مليون فرنك . وقد استخدم رجال القانون من أعضاء اللجنة الدهاء في صياغة الحكم لإخفاء حقيقة المبلغ الذي تقرر تعويضاً عن إلغاء السخرة فهو يبدو للقارى العادى لمنطوق الحكم أو للباحث المتعجل أنه ٣٨ مليون فرنك والحقيقة أنه ٤٢,٥ مليون فرنك .

وإلى جانب هذه التعويضات الضخمة تضاف نفقات أخرى باهظة دفعها مصر وتمثل في أربع نواحي : الناحية الأولى هي الرشا التي قدمت إلى السلطان عبد العزيز وإلى والدته ، وقدم لها نوبار باسم اسماعيل قلادة ماسية ثمنها عشرة آلاف جنيه استرليني ، وإلى رجال البلاط وللوزراء . وقد صدر بشأنهم أمر من اسماعيل إلى نوبار بالأى ايراعى الاقتصاد في ثمن الهدايا

التي تقدم لهم . وخص فؤاد باشا الصدر الأعظم ثلاثون ألف قطعة ذهبية من العملة المجددية لم يقبلها إلا بعد أن أذن له السلطان في قبولها . وكذلك الرشا التي قدمها نوبار إلى موظف في السفارة البريطانية في القسطنطينية هو ستيفنس Stephens السكرتير الخاص للسفير ، وإلى موظف في السفارة الفرنسية هو أوترى Outrey المترجم الأول بها . وكان كل منهما يطلع نوبار على بريد السفارة . وقد قدمت هذه الرشا أثناء مفاوضات قناة السويس التي دارت في القسطنطينية في شهرى يونيو ويوليو ١٨٦٣ وأسفرت عن المذكرة التي أرسلها الباب العالي إلى مصر بتاريخ أول أغسطس ١٨٦٣ خاصة بموضوع للقناة .

وتتمثل الناحية الثانية في الرشا التي قدمها نوبار في باريس إلى الدوق دى مورنى de Morny أخ الإمبراطور نابليون الثالث ورئيس الهيئة التشريعية في فرنسا كي يساند الحكومة المصرية في موقفها أثناء نزاعها مع الشركة خلال سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٤ . ولم يشأ اسماعيل أن يطلق على هذه المبالغ اسم الرشوة ولكن سماها « نقود المهمة » .

أما الناحية الثالثة التي أنفقت فيها الأموال المصرية بسخاء عجيب فكانت الحملة الصحفية التي نظمها نوبار في باريس ضد شركة القناة ونعى عليها افتقارها إلى وجود قانونى *existence légale* لأن السلطان لم يكن قد أصدر تصديقه على عقد الامتياز ، كما نعى عليها ضعف مركزها المالى واعتمادها على السخرة وقد نعتها بأنها وسيلة متبربرة تنفر منها الشعوب المتمدينة . واستمرت تلك الحملة فترة طويلة أوقعت الارتباك في دوائر الشركة ونشرت الاضطراب بين المساهمين واشتركت في هذه الحملة خمس جرائد وكانت الجريدة تتقاضى ستين جنياً عن نشر المقال الواحد . وكان دى لسبس يتساءل عن الخزانة للعجبية التي تمول هذه الحملة الصحفية وقد أطلق عليها اسم الحرب الصليبية باسم الإنسانية .

وكانت الناحية الرابعة هي الاستشارات القانونية التي كان يصدرها
 أعلام القمانون في فرنسا في ذلك الوقت وبعض أعضاء مجلس النواب الفرنسي
 مؤيدة وجهة نظر الحكومة المصرية في نزاعها مع الشركة . وكان نوبار
 يطبع أعداد وفيرة من هذه الاستشارات ويوزعها بالهجان على مختلف هيئات
 باريس وجمعياتها وأنديةها ودور النشر . وكانت الصحف في باريس تنشر
 هذه الاستشارات بعد أن تتقاضى خمسة فرنكات عن كل سطر . أما الصحف
 الموالية والمشاركة في الحملة الصحفية المصرية فكانت تصدر أعداداً خاصة
 أحياناً وملاحق أحياناً أخرى لنشر الاستشارات التي كان يزيد من قيمتها
 أنها صادرة عن أئمة التشريع في فرنسا . ويقول المستشار كرايبتس Crabites
 إنه لم يكن في فرنسا أحد في ذلك الوقت يداني أولئك المشرعين علواً في
 كفايتهم .

* * *

واستطاعت الشركة أن تبرز من الخزانة المصرية أموالاً جمة في صورة
 صفقات كانت تعقدتها مع الحكومة ثم تردها إليها بعد ذلك بعد أن ترفع
 أثمانها أضعافاً مضاعفة . اشترت الشركة من الحكومة المصرية تفتيش الوادي
 بمبلغ يقل عن مليونين من الفرنكات ثم باعته إياها بعد ذلك بعشرة ملايين
 من الفرنكات . وتنطبق على هذه الحالة ثكنات الجيش المصري في دمياط
 ومباني مدرسة الهندسة في القاهرة فقد اشترتها بثمن بخس باعتراف دي لسبس
 ثم تنازلت للحكومة عنها وعن المستشفيات المقامة في البرزخ وعن حق الإعفاء
 الجمركي لقاء ٣٠ مليون فرنك . ثم عادت فاستردت الامتياز الأخير في
 اتفاق أول فبراير ١٩٠٢ على عهد الاحتلال البريطاني الذي وجدت فيه
 الشركة نصيراً مويلاً .

* * *

وقد أخذت مصر على عاتقها - طبقاً للاتفاق الذي عقلمته الحكومة

المصرية مع الشركة بتاريخ ١٨ مارس ١٨٦٣ - انشاء ترعة الماء العذب من مدينة القاهرة حتى قرية القصاصين لتتصل بالترعة التي حفرتها الشركة من تلك القرية حتى نفيشة ثم مدتها جنوباً إلى السويس . وقد أطلق على هاتين الترعتين معاً فيما بعد ترعة الإسماعيلية . وكانت مصلحة الشركة في عقدها الاتفاق واضحة فإن عقد الامتياز الثاني كان قد فرض على الشركة القيام بهذا العمل ، وكان هذا عبئاً مالياً ثقيلاً عليها لم تكن في استطاعتها - ومواردها المالية محدودة ضئيلة في ذلك الوقت - أن تقوم بحفرها . وكان التقرير الذي وضعه لبنان بك وموجل بك كبيراً مهندسى الحكومة المصرية بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٥٥ والذي عرف باسم « المشروع الابتدائى لشق برزخ السويس » .

L'avant projet pour le percement de l' Isthme de Suez قد أكد ضرورة البدء بحفر الترعة الحلوة قبل الشروع في شق قناة السويس حتى يجد العمال المصريون مورداً مائياً ثابتاً يضمنون إليه عند شروعاتهم في إنشاء قناة السويس في صحراء البرزخ . ثم جاء تقرير اللجنة العلمية الدولية في ديسمبر ١٨٥٦ فأكد هذه الحقيقة مرة ثانية . ومع ذلك فإن الشركة أرجأت حفر ترعة الماء العذب على الرغم من أهميتها الحيوية القصوى للمشروع كله حتى وضعت هذا العبء على عاتق الحكومة المصرية . وكان حفر هذه الترعة يتطلب نزع ملكية أراض زراعية ودفع أثمانها لأصحابها . وكانت هذه الأراضى تقع ابتداء من شبرا - حيث مأخذ الترعة - ثم مديرتى القليوبية والشرقية . وقد أشار اتفاق ١٨ مارس ١٨٦٣ صراحة إلى تلك الصعاب التى تخلصت منها الشركة إذ جاء في مقدمته : « وقد اعترف سمو الوالى ومسيو فردينان دى لسبس أن وسائل إنشاء هذا الجزء من القناة ، بمعرفة الشركة وبأموال من طرفها - خصوصاً فيما يتعلق بنزع ملكية الأراضى المملوكة للأفراد ، والاستيلاء عليها ، قد يثير مشكلات إدارية داخلية كثيرة التعقيد عظيمة الخطورة وأن الحكومة المصرية راغبة في حل هذه المشكلات طبقاً لقوانين البلاد وعاداتها

وقد وضعت الحكومة المصرية مواردها المالية والفنية والتموينية وعمال
السخرة بل وجنود جيشها في حفر تلك الترعَة وبلغت تكاليف حفرها واحد
وعشرين مليون ونصف مليون فرنك ، أى ما يقرب من ثمانمائة وستين ألف
جنيه .

* * *

وقد أنفق اسماعيل على حفلات افتتاح القناة مليوناً وأربعمائة ألف جنيه
وبرر أنصاره إنفاقه هذا المبلغ الضخم بأنه أراد أن يظهر مصر أمام أوروبا
دولة غنية متحضرة ثم ينهز الفرصة ويعلن أمام حكام أوروبا - أباطرة وملوكاً
وأمرء - استقلال مصر التام عن تركيا . وهو تبرير غير معقول لأنه لم
لم يحدث . كما أنه لم تخف على المدعوين لحفلات افتتاح القناة حالة البؤس
التي كان يئن منها الشعب المصرى على عهده . بل ندد بعضهم فيما بعد بهذا
السفه . ويكفى أن نذكر أن أحد ضيوفه ذكر أنه غادر قصر عابدين في
منتصف إحدى ليالى شهر ديسمبر ١٨٦٩ على إثر انتهاء إحدى الحفلات
الساهرة التي أقامها إسماعيل ابتهاجاً بافتتاح القناة . وفي طريقه إلى الفندق
الذى كان ينزل فيه وجد أشخاصاً نائمين على أرصفة الشوارع في زمهرير
الشتاء وأخذ يسائل نفسه هل هؤلاء البؤساء هم رعايا الحاكم الذى كنت في
ضيافته منذ دقائق معدودة وكانت أطيب أنواع الخمور وأغلاها تسكب
أمام الضيوف بكثرة وكأنها تتدفق من صناديق الماء ! ! ؟

تم حفر القناة وافتتحت للملاحة البحرية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ بعد أن
أنفقت مصر في إنشائها المال الوفير في سذاجة وسخاء . وظل لمصر مصبران
دسمان هما الأسهم التي كانت قد ابتاعها وعددها ١٧٧٦٤٢ سهماً ثم نصيبها
في أرباح الشركة وكان هذا النصيب مقررأ في عقدي الامتياز بمقدار ١٥ ٪
من صافي أرباح الشركة . وكان هذان المصبران ثروة لا ينضب معينها
تجدد كل عام . ولكن لم تكد تمر ست سنوات على افتتاح القناة حتى باع

إسماعيل أسهم مصر إلى إنجلترا . وقد سبق أن شرحنا الملايسات التي تمت فيها هذه الصفقة الخاسرة بالنسبة لمصر ، ومع ذلك فلم تمر خمس سنوات بعد ذلك حتى باعت الحكومة المصرية في سنة ١٨٨٠ على عهد توفيق المصدر الثاني وهو حصة مصر المقررة في أرباح الشركة .

كانت هذه الحصة مرهونة لدى نقابة من الممالين في باريس وعجزت الحكومة المصرية عن الوفاء بالدين . وعقد مجلس الوزراء المصرى جلسة غير اعتادية في ١٤ يناير ١٨٨٠ برئاسة رياض باشا وحضرها السير ايفلان بارنج Baring المراقب المالى الإنجليزى . أما المراقب الفرنسى فقد كان متغيباً في باريس فحضرها نيابة عنه Liron d'Airoles . وخصصت هذه الجلسة لمناقشة بيع الحصة وانتهت بموافقة مجلس الوزراء على بيعها إلى البنك العقارى الفرنسى بمبلغ تافه للغاية هو ٢٢ مليون فرنك أى ٨٥٠ ألف جنيه ومع ذلك فإن هذا المبلغ لم تأخذه مصر بل دفع لأصحاب الديون الأجانب ضمن أقساط ديونهم وفوائدها . بقى أن نعرف أن مجلس الوزراء كان يضم عدا رئيسه رياض كلا من عثمان رفقى ناظر الجهادية والبحرية ومصطفى فهمى ناظر الخارجية والبارودى ناظر الأوقاف وعلى مبارك ناظر الأشغال وحسين فخرى ناظر الحقانية وعلى إبراهيم ناظر المعارف .

أما البنك العقارى الفرنسى فقد أسس شركة باسم « الشركة المدنية لاستيفاء نسبة الـ ١٥ ٪ من أرباح قناة السويس المحوطة للحكومة المصرية » وكانت تنحصر وظيفتها في تحصيل قيمة هذه الحصة من شركة القناة وتوزيعها على مسهمى الشركة المدنية . وكانت هذه الحصة تدر ربحاً سنوياً يزيد على مليون جنيه مع أن رأس مال الشركة المدنية كان أقل من مليون جنيه . وهكذا فقدت مصر في عهد الأب وابنه - إسماعيل وتوفيق - هذين المصدرين الدسمين .

* * *

لقد بلغت تكاليف انشاء القناة - اعتماداً على المصادر العلمية الوثيقة

المعاصرة ، ٤٢٢,٨٠٧,٨٨٢ فرنكا أى ما يقرب من ١٧ مليون جنيه
 (١٧,٣١٢,٣١٥ جنياً) وبلغت ما دفعته مصر فى إنشاء القناة حسب البيان
 الرسمى الذى قدمته الحكومة المصرية لمجلس شورى النواب ، سنة ١٨٧٦
 (١٦,٠٧٥,١١٩) جنياً وهو نفس الرقم الذى جاء فى تقرير لجنة كيف
 Cave هذا عدا آلاف المواطنين الذين ماتوا نتيجة العطش أو الجوع
 أو الإعياء أو الأوبئة فى ساحات الحفر .

ثم كان ما هو أفدح خسارة من ملايين الجنيهات التى أنفقت وآلاف
 الأرواح التى أزهقت ونعى به الاحتلال البريطانى فقد كانت القناة من أهم
 الأسباب التى دفعت إنجلترا إلى احتلال مصر وظل كابوس الاحتلال جاثماً
 على الصدور طيلة ٧٣ عاماً يمتص دماء المصريين ويعرقل تقدم البلاد حتى
 إذا تم جلاء الإنجليز عن مصر فى يونيو ١٩٥٦ تلت ذلك الجلاء الخطوة
 الطبيعية وهى تأمين شركة القناة فى ٢٦ يوليو من نفس ذلك العام .

عبد العزيز محمد السنارى